من ورائها فنزل البحر وتبعه جنوده حتى اذا اكتملوا جميعا في البحر وهموا وهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما ادرك فرعون الغرق اتى بكلمة الاخلاص ظنا منه انه ينجيه من الهلاك وهو قوله تعالى قال امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين قال ابن عباس لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب وقد كان في حال اليأس غير مقبول وذلك ان الايمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولة ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا باسنا وقيل انه قال هذه الكلمة ليتوسل بها الى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة ولم يكن قصده بها الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لا جرم لم ينفعه ما قال في ذلك وقيل ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا فلهذا قال امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنوا اسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في ايمانه ولما رجع فرعون الى الايمان والتوبة حين اغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له الان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين يعني الان تتوب وقد اضعت التوبة في وقتها واثرت دنياك الفانية على اخرتك الباقية والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام وقيل انها الملائكة وقيل ان القايل هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الارض ويدل على هذا القول قوله فاليوم ننجيك ببدنك والقول الاول اشهر ويعضد هذا القول ما روي عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما اغرق الله فرعون وجنوده قال فرعون امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنوا اسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رايتني وانا اخذ من حال البحر فادسه في فيه مخافة ان تدركه الرحمة اخرجه الترمذي وقال الحديث حسن وفي رواية اخرى عنه عن عدي بن ثابت وعطاء بن السايب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ذكر احدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر ان جبريل جعل يدس في فم فرعون الطين مخافة ان يقول لا اله الا الله فيرحمه الله او خشية ان يرحمه [خشية]
الله اخرجه الترمذي وقال الحديث حسن صحيح **فصل** في الكلام على هذا الحديث لانه في الظاهر مشكل فيحتاج الى بيان وايضاح فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس ففي الطريق الاول علي بن زيد بن جدعان وان كان قد ضعفه يحيى بن معين وغيره فانه كان شيخا نبيلا صدوقا ولكنه كان سيء الحفظ ويغلط وقد احتمل الناس حديثه وانما يخشى من حديثه ما لم يتابع عليه وخالفه فيه الثقات وكلاهما متفق في هذا الحديث لان الطريق الاخر شعبة عن عطاء بن السايب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السايب ثقة قد اخرج له مسلم فهو على شرط مسلم وان كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فانما يخاف منه ما انفرد به او يخالف فيه وكلاهما متفق فيه فقد علم بهذا ان لهذا الحديث اصلا وان رواته ثقات ليس فيهم متهم وان كان فيهم من هو سيء الحفظ فقد تابعه عليه غيره **فان قلت** ففي الحديث الثاني شك في رفعه لانه قال فيه ذكر احدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم **قلت** ليس بشك في رفعه انما هو جزم باحد الرجلين رفعه وشك في تعيينه هل هو عطاء بن السايب او عدي بن ثابت وكلاهما ثقة فاذا رفعه احدهما وشك في تعيينه لم يكن هذا علة في الحديث **فصل** في وجه اشكاله اعترض عليه الامام فخر الدين الرازي في تفسيره فقال ان جبريل اخذ بلا مد بالطين لئلا يتوب غضبا عليه فالجواب لا فائدة لانه لا يخلو في تلك الحال التكليف هل كان باقيا او لا فان كان باقيا لم يجز لجبريل ان يمنعه من التوبة بل يجب عليه ان يعينه على التوبة وان كان التكليف زايلا عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب الى جبريل فايدة وايضا لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقايه على الكفر والرضى بالكفر كفر وايضا فكيف يليق بجلال الله ان يامر جبريل ان يمنعه عن الايمان ولو قيل ان جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بامر الله فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل الا بامر ربك فهذا وجه الاشكال الذي اورده الامام على هذا الحديث وكلام اكثر من هذا والجواب عن هذا الاعتراض ان الحديث قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم

فلا

فلا اعتراض عليه لاحد واما قول الامام ان التكليف هل كان باقيا في تلك الحالة او لا فان كان باقيا لم يجز لجبريل ان يمنعه من التوبة فان هذا القول لا يستقيم على اصل المثبتين للقدر القايلين بخلق الافعال وان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو قول اهل السنة والايمان ويدل على ذلك قوله تعالى ان الله يحول بين المرء وقلبه وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم وقال تعالى ونقلب افيدتهم وابصارهم كما لم يومنوا به اول مرة فاخبر الله تعالى انه قلب افيدتهم على تركهم الايمان به اول مرة فدس الطين في فم فرعون من جنس الختم والطبع على القلب ومنع عن الايمان وصونا للكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طايفة المثبتين للقدر القايلين بخلق الافعال لله ومن المنكرين لخلق الافعال من اعترف ايضا بان الله تعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه ان يضله ويطبع على قلبه ويمنعه من الايمان فاما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فانها من هذا الباب فانه في غاية ما يقال فيه ان الله منع فرعون من الايمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره ورده للايمان لما جاءه واما فعل جبريل من دس الطين في فيه فانما فعل ذلك بامر الله تعالى لا من تلقاء نفسه فاما قول الامام لم يجز لجبريل ان يمنعه من التوبة بل يجب عليه ان يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا اذا كان تكليف جبريل كتكليفنا ويجب عليه ما يجب علينا واما اذا كان جبريل انما يفعل ما امره الله تعالى به فهو الذي منع فرعون من الايمان وجبريل منفذ لامر الله فكيف لا يجوز له منع من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه اعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه واخبر عنه انه لا يومن حتى يرى العذاب الاليم حين لا ينفعه الايمان وقد يقال ان جبريل انما يتصرف بامر الله فلا يفعل الا ما امره الله به واما ان يفعل ما يشاء من تلقاء نفسه لا بامر الله وعلى هذا التقديرين فلا يجب عليه اعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لانه انما يجب عليه فعل ما امر به ويحرم عليه فعل ما نهي عنه والله تعالى لم يخبر انه امره باعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا وقوله وان كان التكليف زايلا عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب الى جبريل فايدة فجوابه ان يقال ان للناس في تعليل افعال الله قولان احدهما ان افعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يرد هذا السوال اصلا وقد زال الاشكال القول الثاني ان افعاله تعالى لها غاية بحسب المصالح لاجلها فعلها وكذا اوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لاجلها امر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير فقد يقال لما قال فرعون امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنوا اسرائيل وقد علم جبريل انه ممن حقت عليه كلمة العذاب وان ايمانه لا ينفعه فدس الطين في فيه ليتحقق معاينته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له وانه وان كان قالها في وقت لا ينفعه فدس الطين في فيه تحقيقا لهذا المنع والفايدة فيه تعجيل ما قد قضي عليه وسد الباب عنه سدا محكما بحيث لا ينفع ولا يبقى للرحمة فيه متنفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للايمان فان موسى لما دعا ربه بان فرعون لا يومن حتى يرى العذاب الاليم فالايمان عند روية العذاب غير نافع فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين في فيه ليايس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتتحقق اجابة الدعوة التي وعد الله موسى بقوله قد اجيبت دعوتكما فيكون سعي جبريل في تكميل ما سبق في حكم الله وانفاذه فيكون سعي جبريل في مرضات الله منفذا لما امر به وقدره وقضاه على فرعون وقوله لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقايه على الكفر والرضى بالكفر كفر جوابه ما تقدم ان الله يفعل ما يشاء وجبريل انما يتصرف بامر الله تعالى ولا يفعل الا ما امره الله به واذا كان جبريل قد فعل ما امره الله به ونفذه وانما رضي بالامر لا بالمامور به فاي كفر يكون هنا وايضا فان الرضى بالكفر انما يكون كفرا

Copyright © King Saud University